هاجس الهويّة عند رشيد بوجدرة: ألف عام وعام من الحنين أنموذجاً

الدكتور محمد بسناسي(*)

الملخص

تتناول هذه الدراسة هاجس الهُويّة في الكتابة الروائيّة لدى رشيد بوجدرة. والهُويّة بُعْدٌ جوهريّ لتشكيل الشخصيّة، لما تشتمله من مكوّنات متداخلة ومتعالقة فيما بينها، إذ إنّها تشدّ الفرد إليها برسوخ ثابت، وتضفي عليه هالة من الأصالة، تبعاً لما تمنحه من خلفيّة صلدة؛ فتجمع بين أفراد الجماعة، وتكسبهم آفاقاً رحبة في الانطلاق قدماً، ابتغاء خوض تجارب الغد، بكثير من الثقة والاتّزان الداخلي، والأمل. وليس من الغريب ألبتّة أنْ تفوز الهُويّة باهتمام الأدب عامة، والجنس السّردي منه خاصّة؛ ذلك أنّ جوانب الهُويّة متعدّدة، ومتشابكة، وخصبة.

ولعلّ أميز مظهر من مظاهر الهويّة الواحدة هو التّاريخ، بأفراحه وأقراحه، بما حفل به من محاسن ومساوئ على حدّ سواء؛ فهو بحقّ وحقيق، عنصر جامع للأفراد، بل وللأوطان، لأنّه صاغ انتماءها، ورسم مصيرها، وسبك ثقافتها، ومن ثمّ بوتق معالم الذّات وسماتها، فهو يشدّها إليه شدّاً، والهويّة مصطبغة به، ومنبسطة تحت ظلاله. وإنّ اللّف حول معالم الهويّة في الأدب هو نشاط واعٍ، وإجراء فنّي، يروم تحقيق طائفة من المبتغيات، من قبيل استحضار تجذّر الهوية في الذاكرة الجماعيّة، وتوطيد ما تعكسه من أبعاد حضاريّة وثقافيّة، وإعادة قراءة

(*) جامعة ليون الثانية – فرنسا

الماضي بالنّقد والتثمين والتحاور معه، وربط الماضي بالحاضر من طريق ديناميّة استجلاء التواصل الناظم لهما، وإحداث تفاعل إيجابي بينهما، والدّفع بالهمم المستنيرة إلى مجابهة التحدّيات وصنع الغد. والرجعة إلى صفحات التّاريخ تصبّ في رغبة تمتين الهويّة الرّاهنة، وشحذ أواصرها في تحريك الفرد والجماعة.

لقد توسلت هذه الدراسة بتتبّع تجلّيات الهويّة ومعالمها البارزة في رواية **(ألف عام وعام من الحنين)**، لا سيّما بإبراز دلالات توظيف التّاريخ في البناء الروائي، وبالتّركيز على استحضار الشخصيّات التّاريخيّة، التي تشكّل هامات سامقات في مسار الحضارة العربية الإسلاميّة؛ فكانت بذلك رموزها وملامح هويّتها المؤثرة والجذّابة في الآن ذاته.

The Obsession of Identity with Rachid Boudjedra: "1001 Years of Nostalgia" –Prototype-

Abstract

Our study deals with the topic of the identity in Rachid Boudjedra's fiction writing. Indeed, the identity is part of the personality because it contains many components closely connected to each other. The identity gives individual features which are strong and original in the sense that it offers to people - belonged to the same social group - a common background. It permits to them to have more confidence and interior equilibrium in order to realize their dreams and hopes. So, this is why it is not strange to see literature in general and the narrative writing in particular paid attention to the subject of the identity because it provides some interesting perspectives.

The study focus on showing the identity manifestations in the novel entitled: "1001 Years of Nostalgia". It is also a question to point out the significance of using history in the fiction development by underlining the recurrent quotations of personalities that have an important place within the Arabic-Muslim civilization. The reasons that guide us to mention the personalities named in Boudjedra's writing are firstly the fact that they are basically icons. Secondly, in terms of features of the Arabic-Muslim identity, they are both attractive and influential.

المقدمة:

ما من شكّ في كون نصوص رشيد بوجدرة متميّزة، ليس فقط من حيث الكمّ، بل كذلك من حيث نوعيّة الموضوعات المطروحة وطبيعتها، أضف أنّ خصوصيّة نصوصه السّردية، تتأتّى من ناحية القطيعة، التي حاول بوجدرة إرساءها في الأدب الجزائري، الذي طالما غلب على جيله التأسيسي طابع الكتابة التقليدية، من حيث الشكل الفني، وطبيعة تشكيل بنية السّرد، وفصيلة الموضوعات المطروقة، وآليات الإبداع وألاعيبه. كما مهد بوجدرة السبيل بجرأة لافتة إلى طرق المحظور، وحفر غمار المطمور، واستنطاق التّاريخ، وتكثيف المتن السّردي بالجانب المعرفي الموسوعي، وإدخال تقنيّات التّصوير السينمائي في الكتابة، وتوظيف التّناص، وإدماج حقول معرفيّة كالريّاضيات ومعطيات الفن التشكيلي والفلسفة، وانتهاج الغموض والغرائبيّة، والاتّكاء على التداعي الحر؛ أي الاعتماد المفرط على اللاشعور، كخلفيّة مؤطرة ومطعّمة للنصّ الفنّي.

ولقد ارتأينا، في هذه المعالجة النّقديّة التّحليليّة، رصد بعض المفاصل التي ألفيناها تدور حول موضوعية الهوية في رواية **(ألف عام وعام من الحنين)**. لذا، سيَستتبِعُ الفقرةَ الناظرة في ترجمة مقتضبة للروائي، شيءٌ من العرض يشي مفهوم الهُويّة لماماً، ثم سنأتي على رصد تجلّيات تشويه الهويّة وفكرة ضياعها، وآليات البحث عن الذات، بإبراز ذلك التّوظيف اللافت لأعلام تراثيّة مشهورة، صنعت الحضارة العربية/ الإسلاميّة، تبعاً لأنّ استدعاءها كان يتغيا التّخفيف من وطأة معاناة فقدان الهويّة؛ أي إعادة تعريف الهويّة المسلوبة، بنفض ما ساورها من تراكم أغبرة الزمان والنسيان، وما شابها من تشويه مقصود تورط فيه المستعمر، لينتهي بنا المطاف إلى قراءة ضربٍ من الصدى، يموج في البنية السّردية، مفاده حتميّة

صون الهويّة من الانمحاء، كشرط رئيس لأيّ مشروع حضاري/ نهضوي. ونحن في مسعانا هذا ننطلق من منطلق التعاطي التفاعلي مع النّص؛ أي بانتهاج حواريّة تستنطق المنجز الروائي.

ترجمة الكاتب:

رشيد بوجدرة روائي جزائري، ولد سنة ١٩٤١م في عين البيضاء الواقعة في الشمال الشرقي من البلاد، ناضل في جيش التّحرير الوطني إبان مقاومة الجزائريين للاحتلال الفرنسي، درس في تونس ثم في فرنسا. يُعدّ إنتاجه الإبداعي متميّزاً، تبعاً لما كتبه من كمّ مهم -وبخاصّة النصوص الروائيّة- باللغتين العربية والفرنسيّة، ومن أهمّها نذكر: الحلزون العنيد، والإنكار، والتفكّك، وضربة جزاء، وألف عام وعام من الحنين التي اختيرت ضمن قائمة تشمل أحسن مئة رواية عربية. ومن الجدير الإشارة إلى أنّ بوجدرة، ترجم بنفسه بعض أعماله الأدبية، وفي هذا الصدد، يبوح قائلاً: "وأعترف أنّني ما زلت أقوم بالتّرجمة، ولكن وجود شخص آخر معي يمنعني من العبث بالنص ويجعلني أكثر أمانة له والتصاقاً به"[١]، كما كتب سيناريو "وقائع سنين الجمر" الحائز على السعفة الذهبية في مهرجان مدينة كان عام ١٩٧٥م. وممّا جاء على لسان محسن جاسم الموسوي بخصوص بوجدرة ما نصه: "وإذا كانت بعض الأعمال الأدبية تتكرر في كتابات النقاد فلأنّها امتلكت مواصفة الإبداع، أي تلك الندرة الأدبية التي ترتقي بالكتابة القصصية إلى مستوى الرواية الفنيّة، وهكذا ترى النقّاد يعترفون لرشيد بوجدرة بمقدرة روائيّة، لا سيّما في الحلزون العنيد والتفكّك"[٢]. ولقد أولع بوجدرة إيلاعاً شديداً بكاتب ياسين؛

---

(١) كامبل، روبرت. ب: **أعلام الأدب العربي المعاصر: سير وسير ذاتيّة، ج١**، الشركة المتحدة للتّوزيع، ط١، بيروت، ١٩٩٦م، ص٣٧٦.

(٢) الموسوي، محسن جاسم: **الرواية العربية: النشأة والتحوّل**، منشورات دار الآداب، ط٢، بيروت، ١٩٨٨م، ص١٩٧ و١٩٨.

فتأثر به، وكثيراً ما صرّح بأنّه أيقونة كبيرة في الأدب الجزائري؛ ومن جملة ما قال بشأنه: "لمّا قرأت لأول مرّة لكاتب ياسين تفاجأت لروعة ما يكتب، أحسست أنّي لم أقرأ أبداً، رغم اطّلاعي من قبل على عديد الروايات، لقد أبهرني بأسلوبه الخاص والفريد من نوعه..."(١).

مفهوم الهويّة:

مفهوم الهويّة من المفاهيم التي نلقاها مطروقة في الكثير من الحقول المعرفيّة، فمثلاً في النقاشات الثقافيّة، يَرِدُ مراراً ذكر الهويّة من حيث إنّها مكوّن ثقافي لمجتمع ما، والهويّة "ذات ملامح ثقافيّة خاصّة بجماعة إثنيّة (لغة، دين، فن، إلخ) إذ تكسبها فردانيتها، وهي شعور بانتماء الفرد لهذه الجماعة"(٢). وبذا، يتبيّن أنّ للهويّة علائق بشبكة من المكوّنات الثقافيّة المميّزة لجماعة بشريّة، كما أنّها شعور بالانتماء إلى حيّز إنساني مخصوص دون غيره، "ومفهوم الهويّة وثيق الصلة دائماً بأصل الشخص وجذوره، وبالوشائج التي تربطه بالآخرين"(٣). وفي الحقل الفلسفي، يُتناول مفهوم الهُويّة، بالنظر في عدّة مكوّنات أساسيّة، وفي سياق البلدان العربيّة، يحصرها محمد عابد الجابري في ثنائيات، فيعلّق في هذا الشّأن قائلاً: "كان هذا السؤال، سؤال الهويّة، ولا يزال، سؤالاً يطرح جملة أزواج أو ثنائيات، على رأسها الأزواج التالية: الإسلام/العروبة، الدين/الدولة، الأصالة/المعاصرة، الوحدة/التجزئة"(٤)، أمّا في النص الروائي **(ألف عام وعام من الحنين)**؛ فيلعب

---

(١) ديك، زهرة: **رشيد بوجدرة: هكذا تكلّم.. هكذا كتب**، دار الهدى، ط١، الجزائر، ٢٠١٣م، ص٣٩٦.

(2) Le Petit Robert: **Robert**, Paris, (2014), p1272..

(٣) السيد، محمود: **"لغتنا الأم العربية الفصيحة"**، **مجلّة مجمع اللغة العربية بدمشق، ج١**، مجلد ٨٤، ٢٠٠٩م، ص١٣.

(٤) الجابري، محمد عابد: **إشكاليات الفكر العربي المعاصر**، مركز دراسات الوحدة العربية، ط٦، بيروت، ٢٠١٠م، ص١٠٢.

الكاتب على طائفة من الرموز تحيل إلى الهويّة من شاكلة اللقب العائلي، الأسماء التّاريخيّة، كما سيأتي بيانه في المحاور الموالية.

بين الهويّة المشوّهة والهويّة التّاريخيّة:

يجدر التّنويه بأنّ رواية (ألف عام وعام من الحنين)، نُشرت بالفرنسيّة سنة ١٩٧٩م في باريس، ثمّ ترجمها مرزاق بقطاش سنة ١٩٨١م، وفي ورقتنا هذه سنشتغل على الطبعة الثانية الصادرة عن المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر. ويمكن توصيف المتن السّردي بأنّه يُضارع شكلاً من أشكال الحفر الأركيولوجي/ التاريخي؛ فيغوص الروائي بين تلابيب التّاريخ ودهاليزه، سبراً له، واستنطاقاً له، لمساءلة الحاضر، وإسقاط هذا الأخير على الأوّل، فالتّاريخ غالباً ما يعيد نفسه، وإن بكيفيّات تتسق وطبيعة العصر وأحواله. وبذا، تنشأ حواريّة مع أحداث فوائت، وشخصيّات رمزيّة، لها ما لها من وزن ثقيل في الحضارة العربيّة الإسلاميّة.

ويوائم تجرّد الشخصيّة الرئيسيّة من اسمها العائلي، مع ما تدعو إليه الكتابة الروائيّة -التي أعقبت الكتابة التقليدية- من استبعاد لفكرة البطل، فعمدت إلى رسم الشخصيات في حدود باهتة. ومعلوم تأثّر بوجدرة بنسق وقوالب وتقنيات الرواية الجديدة؛ ففيها "نتكلّم عن بطل للإشارة إلى الشخصيّة أو الشخصيات المكلّفة بالدّور الرئيس. والشخصيّة الرئيسيّة ليست بالضرورة بطوليّة، أي مثار إعجاب"(١).

وفي عُرف كُتّاب الرواية الجديدة، "لا يرى الروائي مزية في وجود شخصيته إلى درجة أنّه أحياناً لا يعطيها أي اسم"(٢). وقد أدّى تجرّد الشخصيّة الرئيسيّة من

(1) Joëlle Gardes Tamine et Marie Claude Hubert: ***Dictionnaire de critique littéraire***, Armand Colin, Paris, 2004, p55.

(2) Joëlle Gardes Tamine et Marie Claude Hubert: *Dictionnaire de critique littéraire*, p141.

لقبها إلى تملّك هوس جنوني لها ابتغاء معرفة أصولها، وانتمائها، وأجدادها؛ أي إيجاد هويتها المغمورة في التّاريخ؛ ذلك أنّ الهُويّة "نسيج مشدود، ويكفي أن يُنتهك انتماء واحد لينفعل الإنسان بكلّ كيانه"(١).

ولمّا اتسمت الشخصيّة الرئيسيّة (محمد عديم اللقب) بكونها باهتة ومطحونة لا سيّما نفسيّاً؛ فقد طغى عليها هاجس البحث عن الذّات في ألق وتوهّج رموز التاريخ العالمة، لما تمثّله من بُعْدٍ ثقافي عميق، ولما تتمتّع به من حظوة مرجعيّة سامقة، ومن مكانة فكريّة صلدة وأصيلة، ولما قد تثيره مِنْ بعثٍ ثوري لهويّة مشتّتة، انغمرت بين ثنايا القرون المتعاقبة، فشابها ما شابها من تغييب وخفوت، وبذا يقف القارئ، في سياقات كثيرة، على حضور الجاحظ (ت٢٥٥هـ) مثلاً، وما يحيل إليه توظيفه من ثقل في المخيّلة العارفة. وفي ألف عام وعام من الحنين، لا نكاد نقلّب إلّا بعض الصفحات لنصادف تلك السطوة التي ينماز بها: "زعيم ملّة ظهرت في القرن الثاني من الهجرة"(٢). والحال، لم تكن قراءة الشّخصيّات التاريخيّة ذات الأثر الخالد قراءة ضحلة، بل إنّ تناولَها تجاوزَ ما هو متعارف عليه، وتعرّضت إلى قراءة جديدة غير معهودة. لذلك يمنح النّص السردي عند بوجدرة آفاق انطلاق رحبة، لممارسة تأويليّة خصبة وولّادة، فتتمّ إذّاك إعادة قراءة واعية للتراث التّاريخي، بحيث تأخذ في الحسبان المركزيّة التاريخيّة للشخصيّة التراثيّة؛ فالجاحظ مثلاً هو منارة في الفصاحة، والأدب، والتفكير العقلاني، وهو لم يكن عالماً أو عارفاً موسوعيّاً فحسب، وإنّما كان عقلانيّاً بامتياز، ورائداً من رواد المعتزلة، وغنيّ عن البيان ما تميّز به هذا المذهب من تحرّر فكريّ، ومن إبداع معرفيّ وفلسفي، وهذا ما

(١) معلوف، أمين: **الهويات القاتلة**، ترجمة نهلة بيضون، منشورات دار الفارابي، ط٢، بيروت، ٢٠١١م، ص٤١.

(٢) بوجدرة، رشيد: **ألف عام وعام من الحنين**، ترجمة مرزاق بقطاش، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط٢، الجزائر، ١٩٨٤م، ص٦.

بوّأ الجاحظ مكانة سامقة، وحظوة بالغة في المخيال الجمعي. وتوظيفه كرمز، عن طريق الإشارة، والتكرار، وربطه بالرّاهن، فيه ما فيه من الدلالة والقصديّة. لمّا يتّم توظيف تاريخ ميلاد الجاحظ، وعدد تصانيفه؛ فالمحاولة بيّنة من أجل تأصيل إشراقات جديدة، باستنطاق صفحات ماضية خصبة، وعقد تحاور تفاعلي معها؛ ذلك أنّ تقويم الحاضر، يحتاج إلى الاستنجاد بمحطّات التّاريخ الماضوية، بغية نفض الغبار عن ملامح هُويّة، أعماقها ضاربة في الرسوخ والأصالة، والمراد يتبلورُ في حيوية الاعتصام بها والاسترشاد بقبسها، حتّى تلفي الذات/الرّاهنة روحها، فتشقّ طريق الحاضر، وتنظر بثقة في مستقبل واعد. ومن ثمّة، فالحفر في التّاريخ هو تفتيش عن قسمات الهويّة التي تسوق الفرد إلى مجابهة مصاعبه الوجوديّة، وما يقتضيها من تجاوز لطائفة من التحدّيات الجسام والعظام...

لذلك تطرح نصوص بوجدرة مسألة الهويّة كمنطلق حسّاس في فهم الواقع بالعودة إلى التّاريخ، من حيث إنّ هذا الأخير هو مبتدأ الحاضر وامتداده الطبيعيّ؛ فقد يحتضن سجلّ التاريخ ما يمكن أن ينطبق على الواقع الحالي الطافح بالسلبيات والتخلّف، وفي الحاضر انعكاسات مشابهة للماضي السحيق والضارب في القدم. والنّبش في الماضي والتّاريخ ما هو في الحقيقة إلّا كشف للواقع، ومحاولة قراءته قراءة شاملة، في الزمان والمكان اللذين يمثّلان السياق الأكبر الحاضن له. لذا، ليس الحفر المعرفي في التاريخ بالإجراء العبثي ألبتّة، وإنّما هو ممارسة ممنهجَة وواعية، يسعى من ورائها الكاتب، إلى معالجة مسألة ما، قد تكون تداعياتها ما تزال قائمة إلى الآن، وتجيء الإحاطة بتلابيبها المعقّدة، من أجل الوصول إلى أسبابها الأولى، فيستجليها ويُعرّيها. وبذا، فالاستعاضة بالتاريخ ليست قط من باب الترف المعرفي، أو مجرّد استعراض بسيط ومبسّط من لدن الروائي لثقافته الموسوعيّة، وإنّما تندرج في إطار البحث العميق الذي يدرس الظاهرة السياسيّة أو

الاجتماعيّة، من طريق تشريح للحيثيات والملابسات، بحيث تكون الإحاطة شافية ووافية بالغرض، وكاشفة للكثير من مناطق الظلّ. ولقد وجد بوجدرة في مقاربة التّاريخ ومساءلته رافداً حيويّاً، في إخصاب النص، وشحنه بحمولات جديدة ومتجددة؛ "لأنّ البحث والتّنقيب عن الحاضر بغية اكتشاف ما فيه لا يكون مجدياً إلّا عن طريق معرفة الأسباب والمسببات التي أدّت إلى ما هو عليه"(١).

ويأتي البحث في مسألة الهويّة وتفريعاتها هاجساً حيويّاً، تبعاً لما تعيشه الشخصيّة الرئيسيّة من تناقضات وجوديّة ونفسيّة. فالتّاريخ العربي الإسلامي أشرق على الإنسانيّة بالعلوم والمعارف والإضافات الحضاريّة إلى غاية بداية النهضة الغربيّة، وأمدّ الإنسانيّة بفتوحات باهرة شملت مختلف الحقول العلميّة والتقنيّة والفنون والمباحث الفلسفيّة، في حين يعيش الفرد العربي الآن في خضمّ جمود معرفي محيّر، ويحيا بين تضاريس تلوّنها ألوان الركود الحضاري، وهذا ما يبثّ في الفرد قلقاً نفسيّاً مثيراً، هذا إن لم يكن الاستلاب قد اكتنفه وغمره بالكليّة. ومن ثمّة، يتمخض ذلك الصراع النفسي بين جذب الماضي، وقحط الحاضر، ومتطلبات المستقبَل.

وقد يبدو وسم النص الروائي مضللاً بعض الشيء، فليس المقصود الاقتصار على إعادة تمثّلات مئات السنوات من الحنين إلى عصر ذهبي بائد فحسب، بل هناك أيضاً استحضار لسنين من الاضطهاد والاستعباد، عرفتها فترات من تاريخ الحضارة العربية الإسلاميّة، وهذه العهود الظلماء تندّد بها شخوص الرواية، إذ التّاريخ لم يكن أبيض كله ولم يكن أسود كله؛ فقد كان فيه أشياء من هذا وذاك. والحنين يكون عادة لمّا يحصل شوق للأشياء الجميلة، بغية الأوبة إليها وتنسّم عبقها الزكيّ.

(١) سلام، سعيد: **التناص التراثي: الرواية الجزائرية أنموذجاً**، عالم الكتب الحديث، الدار القومية للطباعة والنشر، ط١، الأردن، ٢٠١٠م، ص٢٢٠.

وبموازاة الفترات المظلمة التي تعرّضت لها الرواية، كان يَرِدُ أيضاً ذكر الثورات التي اندلعت من صميمها، إذ إنّها لم تهدأ، وكانت تشتعل شراراتها بين حين وحين، تطول طوراً وتقصر طوراً آخر، لكنّها ترفع أبداً مطالب الإنسان المشروعة، وترافع عن حقوقه المهضومة؛ فمفهوم الحنين ههنا يؤول إلى ذلك العطش لروح التّغيير، الرّامية إلى إحقاق الحق، وإشاعة العدل، وفسح الحرّيّات. والحنين ينبغي أن يُحمل على مفهوم الاستلهام من الجوانب المشرقة من الماضي، الحافل بالفتوحات التي خدمت العرب والمسلمين والناس أجمعين. إنّها عودة إيجابيّة للوقوف، والاعتبار، والتذّكر، والتعلّم من حوادث الماضي، للإفادة منها في الحاضر والمستقبل؛ أي تلقيح الهويّة المشوّهة، الواهنة، بهُويّة تاريخيّة ثرّة وثريّة، إنّه حنين إيجابي ومتفاعل، لا ذلك الحنين الممجد للأسلاف والمكتفي بما صنعوا وبرعوا فيه؛ ولعلّ معنى البيت الشعري -المنسوب إلى علي كرّم الله وجهه (ت٤٠هـ)- ينطبق وسياق الحديث هذا:

إنّ الفتى من يقول: ها أنا ذا ليس الفتى من يقول كان أبي(١)

ولا يخلو اشتغال الروائي على النص التاريخي من متاعب، ومن تورط في مآزق عند توظيف معطيات التاريخ وأحداثه -علماً أنّ التّاريخ استعصى حتّى على من تفرّغ له وتهيّأت الشروط إليه- فالنّص الروائي تطغى عليه سطوة الذاتيّة، كما أنّه قد ينظر للماضي، بمعايير وسياقات الحاضر؛ أي بمفارقات زمنية (anachronismes)، وهذا ما ينجرّ عنه عدم تساوق في قراءة الحدث وسياقه الزمكاني، ويحدث أن يتيه الروائي في مثل هذه المطبّات، إذ المؤرخون أنفسهم قد لا يتفقون على رواية واحدة لحادثة واحدة، ولمّا يُغَلِّبُ الروائي نظرة معيّنة

(١) ابن أبي طالب، علي: **ديوان الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه**، تحقيق: عبدالرحمن المصطفاوي، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، ط٣، بيروت، ٢٠٠٥م، ص٢٨.

فهي حتماً نظرة ذاتية، وتأويل ضيّق قد لا يخلو من تحامل. فبقدر ما في التّاريخ من غواية وإغراء، بقدر ما قد يتورط فيه الروائي في متاهات تضليل مقصود أو غير مقصود. "فهناك فرق بين المؤرخ والروائي؛ حيث إنّ المؤرخ يسجل، بينما الروائي يخلق. من هنا يمتاز الفن على التاريخ بأنّ الإنسان يستطيع عن طريق الفن أن يُحَمِّل التاريخ وجهة نظر أو فلسفة خاصة من أجل تطوير اللحظة الآنية"(١).

ضياع الهويّة والنّفس المأزومة:

ينبني الخطاب السردي على معاناة الشّخصيّة الرئيسيّة (محمد عديم اللقب) لكونه ولد وحيداً بدون أخ توأم، عكس بقيّة إخوته الذين ولدوا كلّهم توائم؛ لذلك يشعر بالغربة والعزلة والاختلاف مقارنة بهم. "ولقد وسمته العزلة بميسمها"(٢). ولمّا يتأمّل في هويّته الاسميّة/ العائليّة، يلفي أنّه عديم اللقب، ما يسبّب له معاناة نفسيّة حادّة، من جرّاء تجرّده من أي اسم عائليّ؛ فينقلب محروماً مأزوماً؛ لأنّه كان يرغب في أن يحمل اسماً "حين ينام ويستيقظ ويأكل ويتناسل ويغضب ويتصالح ويخطّ صفحات"(٣)، وتبعاً لضياع الهويّة أراد التوصّل إليها واستجلاء ملامحها المرجعيّة، لمّا رمى بنفسه بين أحضان التّاريخ، لعلّه يقبض منه على تلابيب ماضيه وماضي المدينة وانتمائه (العربي/ الإسلامي)، من خلال رحلة بحثيّة في كنف التّاريخ، إذ شعر بشيء من الضرورة الحيويّة الملحّة ابتغاء التّنقيب "عن هويته في أعماق التّاريخ السحيقة متسلّقاً إيّاه بشكل تنازلي"(٤). وطفق يسكنه هوس تحديد المنزل الذي أقام فيه ابن خلدون (ت١٤٠٦م) إبّان توقفه ببلدته، فقد كان يرسم

---

(١) القضاة، محمد أحمد: **التشكيل الروائي عند نجيب محفوظ: دراسة في تجلّيات الموروث**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، بيروت، ٢٠٠٠م، ص٤٣.

(٢) بوجدرة، ص٦.

(٣) المصدر نفسه، ص٧.

(٤) المصدر نفسه، ص٨.

صلة هويّة به، ويعقد خيط انتماء إلى سلالة المؤرخ العربي الكبير. "استمرّ [محمد عديم اللقب] في تخصيص بضع ساعات من يومه أملاً منه في العثور على آثار ذلك العلّامة الذي لم يكن شاهداً على الخراب فحسب، بل استطاع أن يتنبأ بوقوعه ويقدّر مدّته"(١).

وتبدأ الهويّة من عتبة الوالدين، أي حيّز الهويّة العائليّة. وما يشدّ الانتباه في رواية ألف عام وعام من الحنين؛ هو فكرة غياب الأب، إذ مات وطحنته رزمة من الورق -مع ما يحمله هذا التّوظيف من تشكيك في رواية موت الجاحظ-؛ لذا فهو "يقول في قرارة نفسه بأنّ والده ترك نفسه يموت تحت طن من الورق تأسيّاً بأكبر عالم عرفه الإسلام"(٢). ولمّا يتطرّق إلى الأب؛ فهو معروض في صورة سلبية؛ "يشعر بنوع من الحقد على ذلك الذي صنع أيامه. فهو في رأيه لم يعمل شيئاً لكي يجنّبه تلك العزلة التي يحسّ بثقلها يتراكم على مرّ السنين"(٣). (المصدر نفسه: ١٥). فينوب عن الأب غالباً استحضار الجاحظ، الذي يكون بمثابة الأب الروحي أو بتعبير جورج طرابيشي: "الأب المؤمثل أب مخلّد"(٤)، لما يمثّله من فكر عقلاني متزن ومن اطّلاع موسوعي، ونشير ههنا إلى أنّ شخصيات بوجدرة غالباً ما تستأنس باستدعاء الجاحظ، إذ يكاد يكون هذا التّوظيف تلقائيّاً في عدّة نصوص روائية أخرى للكاتب نفسه، وبالمقابل تكون صورة الأم أحسن حالاً من الأب، فمحمّد عديم اللقب "كان يحبّها حبّاً جمّاً ويعلم أنها على اطّلاع بكلّ ما يخصّ أموره"(٥)، وهي المرأة التي تتعهّد بستانها بالحرث والسقي فتعمل بلا كلل، وتتحمّل

---

(١) بوجدرة، ص١٣.
(٢) المصدر نفسه، ص١٦.
(٣) المصدر نفسه، ص١٥
(٤) طرابيشي، جورج (١٩٩٥م): **الروائي وبطله: مقاربة اللاشعور في الرواية العربية**، دار الآداب، ط١، بيروت، ١٩٩٥م، ص١١٣.
(٥) بوجدرة، ص١٤.

أتعاب تربية أولادها على كثرتهم، "تمثّل لغزاً مبهماً بسبب نجاحها في مجال الفلاحة وتربية الحيوانات"(١)، وأحياناً تكاد تضاهي صورتها درجة المثاليّة، "لقد كانت تحمل وشم الخصوبة"(٢)، رفضت تزويج بنت الحاكم لولدها البكر؛ فقد كانت تبوح بمعارضتها للحاكم المستبدّ. أمّا حال إخوة محمد عديم اللقب، فهي تضارع حاله، إذ ينقصهم اللقب العائلي، إثر ما اتّخذه المستعمِر من قرارات إدارية صادمة ولا مسؤولة؛ فإخوة محمد "عديمو اللقب منذ ذلك اليوم من سنة ١٨٤٠، حين قرّر رئيس الحالة المدنيّة الأجنبي إذلال جدّهم الأكبر، فيما يقال، فحرمه من لقبه وألصق به حرفين حقيرين، لم تُشفَ العائلة من وخزه بعد"(٣). ومعلوم أنّ الإدارة الفرنسيّة، عاثت فساداً في ملف الحالة المدنية للجزائريين، لما تمّ وضع الألقاب والكنيات، فبعضها كانت مهينة ومسيئة، وبعضها فرّقت بين أبناء العمومة مثلاً، والكثير من الجزائريين لم يحظوا بأيّ تسجيل في سجلّ الحالة المدنيّة. ولقد كان تأثير فقدان اللقب للشخصيّة الرئيسيّة، ووصمه بعديم اللقب تأثيراً بالغاً في نفسيته، وتبعات حادّة تركت بصمتها في مساره الوجودي، "حقّاً لقد طغى هذا الاسم على هويّته، وسحقها وألغاها"(٤)، بل وعلى العائلة كلّها، إذْ "بافتقارها إلى الاسم العائلي كانت مهدّدة بالانزلاق في مهاوي اللاوجود"(٥). ولقد جاء التنديد بصنيع المستعمر في مواضع أخرى من النّص الروائي، نذكر منها "عديم اللقب: ألصقها المشرّع الأجنبي بالعائلة حتّى ينتزع شخصيتها ويحرمها من هويتها"(٦). وفي سياق آخر: "لم يعد [محمد عديم اللقب] يطيق قذارة الحرفين الملعونين اللذين يعوّضان لقبه

(١) بوجدرة، ص٣٥.
(٢) المصدر نفسه، ص٣٥.
(٣) المصدر نفسه، ص٣٠.
(٤) المصدر نفسه، ص٤٤.
(٥) المصدر نفسه، ص٢٦٦.
(٦) المصدر نفسه، ص١٤١.

المفقود منذ أن قرّر ذلك المحتلّ الغاشم البليد"(١). وغير خاف أنّ التلاعب بأسماء ألقاب الجزائريين –وبعدم حمل جزء كبير منهم أي لقب– مبعثه محاولة واضحة لمسخ هويّة الجزائريين، وإحداث شرخ في النسيج الاجتماعي. وكان من تبعات ذلك أن انسلخ بعض الجزائريين عن هويّتهم، لما تبنّوا ألقاباً أجنبيّة، وقد ورد في المتن السّردي عن أحمد أخي محمد عديم اللقب أنّه: "روى البعض عنه بأنّه صار عالماً كبيراً وغيّر جنسيته، على أن يكون قد احتفظ باسمه لكنّه انتحل لقباً أجنبيّاً جديداً لكي يتخلّص من الجرح الذي يشعر به إزاء الآخرين بالنسبة للاسم الذي كان يشير إلى انعدام هويته"(٢). وبذا، فتشويه هويّة الجزائريين كانت فكرة مبيّتة لفصم عرى التلاحم الحاصل بين أفراد الشعب الواحد، بل ولقطع وشائج الرحم داخل العائلة الواحدة.

آليات البحث عن الهويّة الدفينة:

البحث عن الهويّة العائلية هو كناية عن ذلك التّيه الوجودي الذي يتخبّط فيه محمد عديم اللقب، وما قاساه من عزلة وجراحات نفسيّة، وهذا ما حدا به إلى مباشرة نفض الأغبرة المكدّسة على أصوله، إنّه بحث للمصالحة مع الذات، بإيجادها وفهمها وتبنّيها واتّخاذها كمنطلق صلد لفهم واسع لكينونته وواقعه. إنّ التنقيب عن الصلة العائليّة هي ذريعة للوقوف على تشكّلات الذات الحضاريّة وتمثّلاتها، وما تكتنفه من إشراق باهر من جهة، ومن قصور وضعف من جهة أخرى، إنّها رحلة نفسيّة في رحاب التّاريخ، أو سفرية استطباب في كنف التداعي الحرّ، بطرح السؤالات، واستظهار المسكوت عنه. وعوالم النّص تحاول أن تقدّم لنا تلك المصارحة مع التّاريخ، من خلال استعراض ومضات منه، وتجوال بين

---

(١) بوجدرة، ص٣٠٦، ٣٠٧.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٦٥، ٢٦٦.

محطاته الضاربة في القدم، الغارقة في التّعقيد والتشابك، إذ الواقع لا يمكن فهمه دون التفات لسلطان الماضي القريب والبعيد؛ فالتأثير والتأثر حادثان لا محالة، في زخم تراكمات صاغها المخيال في سياق توالي العصور. واستيعاب حيثيات التّاريخ شرط للإحاطة بالذات القلقة، والمتوترة إزاء بناء الغد وتصوراته المثلى. وتأخذ بذلك رحلة البحث عن الذات أبعاداً نفسيّة، وتاريخيّة، وميتاريخيّة بل وحتّى ميتافيزيقيّة. ولا أدلّ على ذلك من طرق مسألة الحريّة والدّين والقمع والتسلّط السياسي، والتنويه بتاريخ الحركات التحرريّة ونضالاتها، التي أبت إلّا وأن تكسر قيود الإذعان والاستغلال بكلّ أشكاله وألوانه، من شاكلة انتفاضة الزنّوج ضد الاستغلال، وثورة القرامطة التي تحدّت عدّة إمبراطوريات وجابهتها بضراوة.

وتتجلّى آليات البحث عن الهويّة الدفينة في إعادة بناء الذات، وإعادة بثّ الروح فيها؛ فتنطلق في استعراض ما استطاعت اختراعه الذات التّاريخيّة، من إنجازات ومبتكرات متنوّعة بتنوّع الميادين المعرفيّة، ويتبلور مشروع ميلادها الجديد من خلال مناهضتها للواقع السياسي الظالم والمظلم، بانتهاج مسار متسلسل من الثورات المسلّحة، المستوحاة من إستراتيجية القرامطة العسكرية، وصلابة ثورة الزنج، وبالتوسل بالثورات الفكريّة المتنوّرة التي قادها علماء عقلانيون من أمثال الجاحظ، وغيره كثير. فواقع محمد عديم اللقب بائس ومحكوم بلعنة استبداد الحاكم السياسي، هذا الأخير لا يتورّع في التورط مع رموز الإمبرياليّة الغائرة في جسد البلاد العربيّة، إذ تأخذ شكل الإنتاج السينمائي طوراً لتتغلغل ثقافيّاً، وتلبس طوراً آخر اللبوس الاقتصادي، كي تستنزف ثروات الشعوب المغلوبة على أمرها.

والعقد الناظم للانتقال المزدوج بين الماضي والحاضر، كانت تحكمه مسألة الهويّة، التي تؤرق الشخصيّة الرئيسيّة، وتسبب لها صداعاً وأوجاعاً، لا تكاد

تخبو حدّتها إلّا لتزداد درجة؛ فلقد عمد محمد عديم اللقب إلى التأمّل في التّاريخ الذي "أرهقه ولم يعد يكف عن إقحام ذاته في طلبه ليدفعه على الفيضان"(١)، ولذا، فقد "أولع بجمع المخطوطات القديمة والكتب الصفراء التي كانت رطوبتها الزنخة تساعده نوعاً ما، على تبيّن الحقائق من الخيالات"(٢). وكانت قراءة التاريخ وعملية توظيفه عميقتين، تعتمدان على التّحليل النّفسي، وتميّز إقحام التّاريخ بالجدّة والجدّيّة في غالب الأحايين. ولا ضير في أنّ الاتّكاء على التّاريخ، يمنح أرضيّة صلدة للمنجَز الإبداعي، شريطة حسن التعاطي معه واستثماره استثماراً ذكيّاً، وتذهب يمنى العيد أكثر من هذا، لمّا ترى في التوسّل بالتّاريخ أفقاً خصباً وواعداً للنص الروائي: "يمكن القول بأنّ الرواية المستعينة بالتّوثيق، المحيل على التّاريخ المكتوب والمرويات الشفوية والقصاصات الصحفية والمدونات، تبدو أفقاً مستقبليّاً للرواية العربية"(٣).

كان يمثّل التاريخ الصاخب بالأحداث والوقائع، المشرقة منها والتعيسة، ملجأ لمحاولة إيجاد إجابات، أو شذرات من المعطيات، بحيث تجيب عن معضلة الهويّة التي ألقت بظلالها على الدول، وبخاصة العربيّة بعد استقلالها؛ ذلك أنّ الاستعمار شوّه من الهويّة المتوارثَة، وفعل فيها الأفاعيل، وصنع الأقاويل لمسخها وتزييفها. وغني عن البيان مثلاً ما روّج له الاحتلال الفرنسي، من نفي فكرة الأمة الجزائريّة أساساً، واصطناع تبرير الاحتلال بفرية نشر الرسالة الحضارية، وحظر استعمال وتداول اللغة العربيّة، وتجهيل الجزائريين عمداً، والنظر إليهم نظرة دونيّة باحتسابهم مجرّد أهالٍ، ليس لهم أيّ حق من الحقوق الإنسانيّة، ووصولاً إلى

---

(١) بوجدرة، ص١٤٩.

(٢) المصدر نفسه، ص٤٠.

(٣) العيد، يمنى: **الرواية العربية: المتخيّل وبنيته الفنيّة**، دار الفارابي، ط١، بيروت، ٢٠١١م، ص٢٦٦.

محاولة تكريس فكرة أو أكذوبة الجزائر فرنسيّة، ولعلّ أهم الممارسات المترجِمة لآلة طمس الهويّة هي طبيعة الألقاب المقززة والمنافية للإنسانيّة، من جملة الألقاب التي أطلقها على العائلات الجزائريّة، إبان وضع سِجلّ الحالة المدنيّة، فالشخصيّة المحوريّة لم تقف عند عتبة هذا التزييف الفاضح؛ لأنّها ببساطة جُرّدت من أيّ لقب، فمحمّد هو عديم اللقب (sans nom patronymique)، فكان "تجريد الاستعمار له من اسم عائلي يربطه بالآباء والأجداد منذ القديم واردة تطارده وتطارد عائلته، فيشغله البحث والتنقيب عمّا يجري في القرية من أحداث وما تعيشه من متغيّرات. ويبقى هوسه الوحيد هو معرفة هويته الشخصيّة والعائليّة والوطنيّة، والبحث عن ذاكرة ثقافية وتاريخيّة خفيّة"(١). ومن ثمّة، يُعدّ فضح ما اقترفه الاستعمار في حقّ الهويّة آليّة بارزة، في طرح بواعث التّشويه الذي لحق بالذّات، حتّى يتسنّى البحث عن الهويّة الأصيلة واستردادها، من أجل إعادة بناء الأنا.

التوظيف الرمزي للشّخصيّات التّراثيّة:

إنّ طرح مسألة الهويّة كان من طريق ولوج باب التّاريخ، وفتحه على مصراعيه، واستحضار مكثّف لشخصيّات تراثيّة، متعدّدة المشارب المعرفيّة، والفترات الزمنيّة، استناداً إلى ما أزجته من منجزات باهرة في شتى ضروب العلم والمعرفة؛ فهذا ابن خلدون يلقي له حقّاً من الرفعة والذكر، إذ يصرّ محمد عديم اللقب على تحديد المكان الذي حلّ به العلّامة بالبلدة التي يسكنها. ومعلوم مدى وزن قامة شامخة كابن خلدون، تبعاً لما حبّره من مصنّفات خالدة، سبقت في فتوحاتها العلميّة والمعرفيّة عصره بقرون عديدات، زيادة على ما يمثّله نسب الرجل من خلال شجرته العائليّة، وكذا امتداد هيبته الجغرافيّة لمّا أوكلت إليه رياسة قاضي القضاة في بلد الكنانة؛ فابن خلدون نجد فيه: اليمن والأندلس والمغرب العربي

(١) سلام، **التناص التراثي: الرواية الجزائرية أنموذجاً**، مرجع سابق، ص٢١٧ و٢١٨.

من ناحية أصوله، ومصر من جهة الوظيفة السامية التي تقلّدها. فابن خلدون هو أنموذج للعربي المستنير، العالم الفذ، غزير المعارف، الكثير التجوال والسياسي المحنّك؛ لذلك "ظلّ [محمّد عديم اللقب] يؤثر مؤلف المقدّمة لسبب وهو أنّه خطر له التوقف بالمنامة [من المنام، ولا علاقة لها بعاصمة البحرين]، مدّة أربع سنوات، ووضع فيها أدق مصنّف في الاقتصاد السياسي حصل عليه العالم"(١)، فمحمّد عديم اللقب يخفّف من وطأة معاناته، وأزمته النفسيّة لما "يربط نسبه بنسب ابن خلدون، ويزعم ارتباطه به بسلالته، وأنّ أصله يرجع إليه"(٢).

إنّ هوس إحياء الصفحات المشرقة من الحضارة العربيّة، والاهتداء بمكتسباتها الثمينة، التي غيّرت تضاريس العلوم والمعارف، تبعاً لما أتحفت به الإنسانيّة من إضافات فكريّة خالدة، ومن تنظيرات رائدة، أنارت بها سبلاً واعدة لبني البشر، هو شكل من أشكال إعادة رسم الهويّة العربية/ الإسلاميّة، ابتغاء صنع مستقبل يستنير بما لم تعجز عنه أجيال سابقة؛ فقد تسنّى لها تسيّد العالم بفضل الرسالة الحضارية التي أمدّتها بسخاء للإنسانيّة. وقد استوعب عباقرة عرب ومسلمون علوم من قبلهم، واستحدثوا مفاهيم ونظريات جديدة، ومخترعات طريفة، وصنعوا ثورات في الفكر والعلوم والفنون.

ومن أولئك الأفذاذ الذين ورد ذكرهم في المتن السّردي في عدّة مناسبات: الجاحظ (ت٢٥٥هـ)، وابن الهيثم (ت٤٣٠هـ)، والرازي (ت٣٢٠هـ)، والفرزدق (ت١١٠هـ)، وشجرة الدر (ت١٢٥٧م)، والبيروني (ت٤٤٠ هـ)، وابن الجزار (ت٣٦٩هـ)، والخزيني (ت١١٥٥م)، وابن شاكر (ت٧٦٤هـ)، وجابر بن حيّان (ت١٩٥هـ)، وابن البيطار (ت ٦٤٦هـ)، وحنين بن إسحق (ت٢٦٠هـ)،

(١) بوجدرة، ص٣٣.

(٢) سلام، مرجع سابق، ص٢٢٤.

والشيرازي (ت٧١٠هـ)، وابن معشر (ت٢٧٢هـ)، والزهراوي (ت بعد ٤٠٠هـ)، وابن قرّة (ت٢٨٨هـ)، والمتنبي (ت٣٥٤هـ)، والكندي (ت٢٥٦هـ)، والطوسي (ت٦٧٢هـ). ومن ثمّ، فالشخصيّة العربيّة الإسلاميّة غنيّة وثريّة بعطاءاتها، عكس ما رنا إليه الاحتلال من مسخ وإقصاء لهذه الهويّة الأصيلة والرامية بجذورها في التّاريخ. ولكأنّنا نقرأ أنّ محمد عديم اللقب سُلبت حقّاً منه تسميته العائليّة، بيد أنّه من المحال أنْ يُصادر منه انتماؤه إلى سلالة عظماء أفذاذ، غيّروا مسار الحضارة العالميّة، وخلّدوا أسماءهم على الرّغم من إنكار الناكرين، وجحود الجاحدين. وينبغي الانتباه إلى أنّ مقاربة النص الروائي، تستدعي من القارئ القبض على المعنى، وتتبّع العلائق المستترة بين بنياته، إذ "إنّ الرواية، في حقيقتها، لا تقول بقدر ما تثير الانفعال وتحرّك المشاعر الهامدة والإحساسات الخامدة. إنّها لا تنقل المعنى إلى الذهن بقدر ما تبعث الشعور الذي يقود إلى التّفكير والتساؤل"[(١)].

ولم يقتصر توظيف الشّخصيات التّاريخيّة على الإيجابيّة منها، وإنّما تعدّاه إلى ذكر وفضح الشخصيّات السياسيّة، التي أرهقت شعوبها بالاستبداد والطغيان، وقد تمّ تصويرها في شكل فزّاعات كانت تضعها مسعودة عديمة اللقب في بستانها لكي تروّع بها الطيور، ومنها: محمود الثاني (ت١٨٣٩هـ)، والحجاج بن يوسف (ت٩٥هـ)، والمعتصم (ت٢٢٧هـ)، وأبو العباس السفّاح (ت١٣٦هـ)، وسفيان بن معاوية (ت ؟)، ومراد الأوّل (ت١٣٨٩م). ولقد ورد على لسان مسعودة عديمة اللقب طبيعة الشخصيات التي علّقت فوق الأشجار كي تخيف الطيور وترهبها؛ أي بوضع صور من أفزعوا الشعوب بالقسوة والقهر والقوّة، فقالت: "لا تمثّل هذه الفزّاعات كلّ من هبّ ودبّ، لقد مزّقت التّاريخ، وملأت المقابر"[(٢)].

(١) سويرتي، محمد: **النقد البنيوي والنص الروائي**، إفريقيا الشرق، ط٢، المغرب، ج١، ١٩٩٤م، ص٦٤.

(٢) بوجدرة، ص٧٥.

تقمصت مسعودة عديمة اللقب دور المناهِضَة لسلطة حاكم المنامة، وقد كانت تحمي غرسها بفزّاعات، اضطهدت الشعوب، ومارست الاستبداد والتقتيل الشنيع، وقمعت الحريّات ودكّت حصون المناوئين والمعارضين دكّاً؛ فهي تتشفّى في رؤوس الطغيان وأئمتهم، وتُفصح -من خلال طقوس نصب الفزّاعات- عن التّنديد والاستهتار بالشخصيات التي ترمز إليها؛ حتّى إنّها تقيم فرقاً بين من أساء فعلاً وآذى، ومن أساء ولم يؤذ، ومن ذلك ما جاء في المتن السّردي: "فاجأها أحد توأميها وهي تنزع فزّاعي الخبازين المنتقمين من أعلى الشجرة"[1]، وهما الزوج النمساوي الخبّاز الذي ولئن صنع حلويات الهلاليات (croissants) المشهورة، احتفاءً وتشفياً بعدم تجاوز جيوش المسلمين أسوار فينا -مع ما ينطوي عليه الأمر من إساءة، تبعاً لأنّ الهلال رمز المسلمين-؛ فإنّه لم يصل درجة طغيان بعض الحكّام؛ لذلك نزعت مسعودة عديمة اللقب فزّاعي الخبّاز النمساوي وزوجته.

ضرورة تحصين الهويّة:

لا غرو أنّ عنصر الهويّة ليس بالأمر الهيّن، فلا يستوي بناء الفرد استواءً سليماً دون معالم تضفي عليه هويّة مميّزة، يتمتّع وينفرد بها، والفرد هو بحقّ عماد المجتمع؛ ولذلك فَصَوْنُ معالم الهويّة من الاستلاب والتفسّخ يقتضي جهداً جهيداً، ولا يقتصر الحسّ بها على فترة معيّنة من الفترات، إذ هي مسألة تُتَوارث بين الأجيال، على مرّ العصور، بحكم أنّ الهويّة قابلة للاختراق والتّشويه مجدداً، تبعاً لما تعرفه بعض الدول -والعربيّة منها- من توغلات سافرة من لدن الغربيين، تحت ذرائع مختلفة: نفط، ثقافة، إلخ، كما يبرز توظيف شخصية الجنرال يهودي، مدى العنف الممارَس ضدّ التماسك العربي؛ ذلك أنّ هذه الشخصيّة تقصف البلدة بلا كلل، وهذا تمثيل لعنف العنصر اليهودي الذي غذّى هشاشة الوضع

(١) بوجدرة، ص١٣٢.

العربي، "حيث كانت هزيمة حزيران ١٩٦٧، صدمة كبيرة للمجتمع العربي، شملت مؤسساته المدنيّة والعسكريّة، ووضعت العربي وجهاً لوجه أمام ضعفه، وعجزه عن حماية أوطانه وممتلكاته؛ لذلك لم تظهر آثار تلك الهزيمة على وجوه الناس فحسب، ولكنّها راحت تظهر في الآداب والفنون العربية، بصفتها الممثل الحقيقي لوجدان الأمة وروحها"(١). وفي ألف عام وعام من الحنين، يتّخذ التواجد الأجنبي أشكالاً كثيرة، منها تصوير (فيلم) عن ألف ليلة وليلة، وما استتبعه من توافد لممثلين إلى مدينة المنامة، وهو شكل من أشكال التغلغل في البلاد العربيّة، حتّى إنّ صورة الممثلين تطفح بالجشع والغطرسة، إذ اتسموا بخصائص من قبيل: "جعجعتهم واستبدادهم وتعاليهم واحتقارهم ونبذهم لأهل المنامة"(٢)، ولذا، يطرح المتن السّردي مسألة الحفاظ على الهوية من الامتداد الغربي الدخيل عن الهويّة العربيّة، إذ هو امتداد توسّعي تحرّكه بواعث الجشع. وإذ يستذكر محمد عديم اللقب التجارب الثورية الماضويّة؛ فذلك حتّى يستلهم منها التسلّح من جديد بِنَفَسٍ ثوري، يعزّز به رفضه تواطؤ الحاكم، الذي ما هو إلّا رمز من رموز الرجعيّة والردّة الحضاريّة، والقامع الأوّل لانطلاق الشعوب المهووسة بالحريّة؛ لأنّه يقف أمامها سدّاً منيعاً، فيعسر عليها فرض وجودها في عالم تغيّر كثيراً، وأصبح يسير وفقاً لما يمليه الغرب من قيم وسياسات ونزعات عقديّة. وبذا، فغطرسة الغربيين ومعاودة رجوعهم إلى الأرض العربية، بشتّى الطرق والذرائع، ترمي في نهاية المطاف إلى التمكّن من ثروات الشعوب، واستغلال طاقاتها، ويبلغ خبث التغلغل إلى حدّ أنّ الغربيين "يغيّرون هويّات المناميين المساكين المشدوهين"(٣)، ومن ثمّ

(١) النعيمي، أحمد حمد: **إيقاع الزمن في الرواية العربية المعاصرة**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، الأردن، ٢٠٠٤م، ص١٢١.

(٢) بوجدرة، ص١٥٦.

(٣) المصدر نفسه، ص١٥٨.

جاء توظيف الحركات التحررية التي عرفها الإسلام، من شاكلة حركة القرامطة وثورة الزنج، وإسقاطها على الحركة التي تزعّمها آل عديم اللقب، بغية الوقوف في وجه الحاكم بندرشاه، الذي مثّل صورة الحاكم الخائن، المتواطئ مع الغرب، والطامح لتحقيق مآربه الخاصّة على حساب شعبه، وكان إذاً من الضروري الاطّلاع على تاريخ القمع، والاستبداد، وديكتاتوريّة الحكّام، الذين استعبدوا الشعوب، وأذلّوها، وكذا تبيان تاريخ الحركات الثورية المناوئة، التي أخذت على عاتقها مهمّة تغيير الواقع، وبثّ الوعي، والتحرّر من ربقة الظلم والغبن المفروض بحدّ السّيف، ولقد كانت الحركات الثورية، تستنير بالفتوحات التي توصل إليها العقل. وبذا، يتبدّى أنّ للتّغيير رسالة نبيلة، إذ ليست الغاية من التّغيير، قلب نظام بآخر، بل ينطوي على مبتغى، يتمثّل في تحسين الواقع المادي، والفكري، والفلسفي، والأدبي، والاجتماعي. وهذه الثورة الشاملة، لا تقوم قائمتها بدون وعي حقيقي بالهويّة الأصيلة، إذ هي روح الشعب، ومدده في صنع غد جديد، بحيث يكون مفعماً بالعدالة والحريّة والسعادة.

ولما يستنطق القارئ المتن السّردي، يمكنه استخلاص بعض الغايات التي رمى إليها الروائي، "وهكذا نجد في البناء النصي أنّ العمليّة تتم من لدن الكاتب والقارئ؛ فكلاهما يساهم في إنتاج دلالة النص عبر عمليّة بنائه للنص"(١). ولا غرو في أنّ النصّ هو مرسلَة، لا يتأتّى وقعها إلّا لما تحقّق القراءة شيئاً من الأثر في المتلقّي، بما أنّ "المسرود بوصفه أداة، هو رهان تواصل: يوجد واهب للمسرود، ويوجد متلقّ للمسرود"(٢). ومن تلك الغايات المنشودة، نستشف ضرورة تحصين الهويّة في نهاية

(١) يقطين، سعيد: **انفتاح النصّ الروائي: النصّ والسياق**، المركز الثقافي العربي، ط٢، الدار البيضاء، ٢٠٠١م، ص٦.

(٢) بارت، رولان وآخرون: **شعرية المسرود**، ترجمة عدنان محمود محمد، منشورات الهيئة السورية العامة للكتاب، وزارة الثقافة، ط١، دمشق، ٢٠١٠م، ص٣٦.

الرواية، من خلال الدلالة الإيحائيّة، لمّا طلب حاكم البلدة من محمد عديم اللقب "العثور على شاهدي عيان عرفا سلفه هذا العظيم [ابن خلدون] معرفة شخصيّة ومتينة"(١)، ابتغاء ربط النسب العائلي به، وهذا الشّرط فيه ما فيه من تعجيز، إذ لمّا تنقطع الصلة بالشخصيّات التّاريخيّة/ الرمزيّة، يغيب جزء من الهويّة، إن لم نقل الكثير منها؛ فقد كان ديدن محمد عديم اللقب "أن تسلّم له شهادة رسميّة كتبت هويته المستعادة إليه بعد قرون من الحرمان والصخب، إذ لم يعد يطيق قذارة الحرفين الملعونين اللذين يعوّضان لقبه المفقود منذ أن قرّر ذلك المحتل الغاشم البليد"(٢). وعلى هذه الشاكلة تنتهي الرواية، إذ ولئن تمّ تغيير النظام الحاكم؛ فإنّ مبتغى استرداد الهويّة كاملة، لم يتيسر تحقيقه في أرض الواقع، ولكأنّ الذّات، ستحمل آثار التّشويه الذي مسّها، والعبث الذي طالها، ومن ثمّ، فلا مناص من تحصين الهويّة وعناصرها، بشتّى الطرق والطرائق، لأنّها ميسم الفرد والجماعة والوطن. وبذا، فهاجس الهويّة يطغى على النص السّردي من بدايته إلى نهايته.

---

(١) بارت رولان وآخرون: **شعرية المسرود**، مرجع سابق، ص٣٠٧.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٠٦ و٣٠٧.

النتيجة:

طغى هاجس الهويّة في رواية ألف عام وعام من الحنين. وقد تمّ توظيف انعدام الهويّة العائليّة للشّخصيّة الرئيسيّة، لكي ينعقد بحث حثيث عن الهُويّة الكبرى، من خلال العودة إلى التّاريخ العربي/ الإسلامي، وكشف عمقه، وثرائه، وغناه، ولكن أيضاً بتلمس طائفة من محطّات منه، انطوت على ظلمات سياسية؛ فكان التطواف بين الماضي والحاضر قائماً بوساطة جملة من الإسقاطات والقراءات النّقديّة الجادّة. وبذا، فقد نظر المتن السّردي في الواقع المعيش باللجوء إلى سجلّ التّاريخ، حتّى إنّه وردت عمليّة تأويل طريفة لحكاية ألف ليلة وليلة.

وكان الاهتمام بمسألة الهويّة حلقة رابطة بين الماضي والرّاهن، وهاجساً يُبتغَى منه تأسيس وعي حقيقي من أجل ترميم الذّات التي تعاني القهر السياسي المسلّط عليها والعذاب النّفسي لفقدانها التواصل بأجدادها. لذا، فتأصيل الهُويّة شرط مهم، لكي يتنامى الوعي في نفوس سكان المدينة الرمزية: المنامة؛ ذلك أنّها كانت مدينة نائية عن مستجدّات العالم. والنص يسهب في طرق مسار محمد عديم اللقب، تلك الشخصيّة الضائعة والمأزومة لفقدانها اللقب العائلي، إذ جاهدت واجتهدت في سبيل استرداده؛ ومبعث ذلك أنّ الانتماء هو ما يرسّخ عراقتها وأصالتها، وهو ما يحقّق لها توازناً نفسيّاً، حتّى تنعم بوجودها بدون معاناة أو عذابات حادّة، وهي إذ تناضل بكدّ وجدّ؛ فلأنّ الاستعمار قام بتشويه عمديّ للقبها وهويّتها.

وقد كان إذاً كل هوس محمد عديم اللقب، ينصبّ على تخفيف آلامه، من جرّاء عدم حوزته للقب يُعَرِّفُ به؛ فهو سائر في بحث محموم، وغير مكلول، لاسترداد هُويّته الضائعة؛ بانكباب طقوسي في تصفّح المخطوطات القديمة، وفي التأمّل في بطون المصنّفات التّاريخيّة، وبالاستئناس غير العادي بشخصيّة ابن خلدون.

ومن ثم، كان العود إلى نفض غبار القرون السوالف منزعاً عُصابياً للشخصيّة المحوريّة، ومن خلال لعبة الحكي، تجلّى مبعث التّنويه بجوانب مهمة قدّمتها الحضارة العربية الإسلاميّة للبشرية، من مبتكرات ونظريات وفلسفات وفنون، في كونها حافزاً حقيقيّاً من أجل ترسيخ أصالة الانتماء وقوّة العطاء التّاريخي والإشراق الحضاري، وقد كان لهذا التّذكير والاستذكار دافع حاضّ في استنهاض الهمم، من أجل مجابهة العنصر الأجنبي المسلّط على المنامة، والذي لم يكن له مِنْ هَمٍّ سوى نهب الثروات، وإرساء الهيمنة الإمبرياليّة؛ فهذه الأخيرة تتكيّف مع الوقت، وتتلوّن بشتّى الألوان من أجل بلوغ مآربها. كما أنّ تغيير الحاكم بحاكم آخر قريب من اهتمامات الشعوب المسحوقة، هو ديدن الحركات الثورية الجادّة؛ فأهل المنامة قلبوا الأوضاع رأساً على عقب، حتّى يكون حاكمهم الجديد "مهدي واعي" اسماً على مسمّى، وبمعنى آخر: هويّة حاكمة مستنيرة.

وإذا كان محمّد عديم اللقب فشل في مسعاه، بإثبات صلته العائليّة بابن خلدون؛ فذلك عائد إلى تراكمات عصور من النسيان والانكماش والتراجع الحضاري، وإلى تغلغل العنصر الأجنبي المُمَثَّل في الاستعمار، الذي عبث بالأسماء والهويّات. وفي هذا الفشل دعوة إلى ضرورة تحصين الهُويّة لتجاوز الانتكاسات، بالاستلهام الإيجابي من تجارب الماضي المشرقة، من أجل غد واعد؛ ذلك أنّ مصير الضعيف هو الانمحاء والاستلاب، بل إنّه ليس بمنأى عن فقدان شخصيته، ما لم يعِ أصالته وانتماءه، وما لم يتشبّع بتراثه تشبّعاً يحفّزه على صناعة غده بيديه؛ فأيّ بناء نهضوي ينطلق أساساً من وعي عميق بالأنا.

المصادر والمراجع

١. ابن أبي طالب، علي (٢٠٠٥م): **ديوان الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه**، تحقيق: عبدالرحمن المصطفاوي، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط٣.

٢. بارت، رولان وآخرون (٢٠١٠م): **شعرية المسرود**، ترجمة عدنان محمود محمد، منشورات الهيئة السورية العامة للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، ط١.

٣. بوجدرة، رشيد (١٩٨٤م): **ألف عام وعام من الحنين**، ترجمة مرزاق بقطاش، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط٢.

٤. الجابري، محمد عابد (٢٠١٠م): **إشكاليات الفكر العربي المعاصر**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط٦.

٥. ديك، زهرة (٢٠١٣م): رشيد بوجدرة: **هكذا تكلّم.. هكذا كتب**، دار الهدى، الجزائر، ط١.

٦. سلام، سعيد (٢٠١٠م): **التناص التراثي: الرواية الجزائرية أنموذجاً**، عالم الكتب الحديث، الدار القومية للطباعة والنشر، الأردن، ط١.

٧. سويرتي، محمد (١٩٩٤م): **النقد البنيوي والنص الروائي**، إفريقيا الشرق، المغرب، ج١، ط٢.

٨. السيّد، محمود (٢٠٠٩م): "**لغتنا الأم العربية الفصيحة**"، سوريا، مجلّة مجمع اللغة العربية بدمشق، ج١، مجلد ٨٤، ص١٣-٢٠.

٩. طرابيشي، جورج (١٩٩٥م): الروائي وبطله: **مقاربة اللاشعور في الرواية العربية**، دار الآداب، بيروت، ط١.

١٠. العيد، يمنى (٢٠١١م): **الرواية العربية: المتخيّل وبنيته الفنيّة**، دار

الفارابي، بيروت، ط١.

١١. القضاة، محمد أحمد (٢٠٠٠م): **التشكيل الروائي عند نجيب محفوظ: دراسة في تجلّيات الموروث**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١.

١٢. كامبل، روبرت. ب (١٩٩٦م): **أعلام الأدب العربي المعاصر: سير وسير ذاتيّة**، ج١، الشركة المتحدة للتّوزيع، بيروت، ط١.

١٣. معلوف، أمين (٢٠١١م): **الهويات القاتلة، ترجمة نهلة بيضون**، منشورات دار الفارابي، بيروت، ط٢.

١٤. **المنجد في اللغة والأعلام** (٢٠٠٥م): دار المشرق، بيروت، ط٤١.

١٥. الموسوي، محسن جاسم (١٩٨٨م): **الرواية العربية: النشأة والتحوّل**، منشورات دار الآداب، بيروت، ط٢.

١٦. النعيمي، أحمد حمد (٢٠٠٤م): **إيقاع الزمن في الرواية العربية المعاصرة**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الأردن، ط١.

١٧. يقطين، سعيد (٢٠٠١م): **انفتاح النصّ الروائي: النصّ والسياق**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٢.

بالفرنسيّة:

1. Joëlle Gardes Tamine et Marie Claude Hubert (2004): *Dictionnaire de critique littéraire*, Armand Colin, Paris.

2. *Le Petit Robert* (2014) : Robert, Paris.

Binyatuhu al-Faniyya, (in Arabic), (Beirut: Dār al-Fārābī, 2011), 1st ed.

11. Al-Quḍāt, Muḥammad Aḥmad, al-Tashkīl al-Riwāī ʿInda Najīb Maḥfūẓ: Dirāsā fī Tajaliyyāt al-Mawrūth, (in Arabic), (Beirut: al-Muasasa al-ʿArabiyya li-dirāsāt wa al-Nashr, 2000), 1st ed.

12. Kambel, Robert. B, Aʿlām al-Adab al-ʿArabī al-Muʿāṣir: Siyyar Wa Siyyar Dhātiyya, (in Arabic), (Beirut: al-Sharika al-Muttaḥidda li-Tawzīʿ, vol.1, 1996), 1st ed.

13. Maʿlūf, Amīn, al-Huwiyyāt al-Qātila, tr. Nahla Bayḍūn, (Beirut: Dār al-Fārābī, 2011), 2nd ed.

14. Al-Munjid Fī al-Lugha Wal al-Aʿlām, (in Arabic), (Beirut: Dār al-Mashriq, 2005), 41st ed.

15. Al-Mūsawī, Muḥsin Jāsim, al-Riwāyya al-ʿArabiyya: Al-Nasha Wa al-Taḥawwul, (in Arabic), (Beirut: Dār al-Ādāb, 1988), 2nd ed.

16. Al-Nuʿaymī, Aḥmad Ḥamad, Iqāʿ al-Zaman Fī al-Riwāyya al-ʿArabiyya, al-Muʿāṣira, (in Arabic), (Jordan: al-Muasasa al-ʿArabiyya li-dirāsāt wa al-Nashr, 2004), 1st ed.

17. Yaqtīn, Saʿīd, Infitāḥ Al-Nas al-Riwāī: al-Naṣ wa al-Siyyāq, (in Arabic), (Casablanca: al-Markaz al-Thaqāfī al-ʿArabī, 2001), 2nd ed.

in French:

18. Gardes, Tamine Joëlle & Hubert, Marie Claude, Dictionary of Literay Criticism, (in French), (Paris: Armand Colin, 2004), 1st ed.

19. Rey, Alain, The Petit Robert Dictionary, (in French), (Paris: Dictionnaires le Robert, 2014).

Bibliography

1. Ibn Abī Ṭālib, ʿAlī, Dīwān al-imām ʿAlī b. Abī Ṭālib, (in Arabic), ed. ʿAbd al-Raḥmān al-Musṭafāwī, (Beirut: Dār al-Maʿrifa Lilṭibāʿa wa al-Nashr wa al-Tawzīʿ, 2005), 3rd ed.

2. Barthes, Roland & als, Shiʿriyyat al-Masrūd, (in Arabic), tr. ʿAdnān Maḥmūd Muḥammad, (Dmascus: Manshūrāt al-Haya al-Sūriyya al-ʿāma Lilkitāb, Wizārat al-Thaqāfa, 2010), 1st ed.

3. Būjadra, Rashīd, Alf ʿĀm wa ʿĀm Mina al-Ḥanīn, (in Arabic), tr. Marzāq Baqṭāsh, (Algeria: al-Muasasa al-Waṭaniyya Lilkitāb, 1984), 2nd ed.

4. Al-Jābirī, Muḥammad ʿĀbid, Ishkāliyyāt al-Fikr al-ʿarabī, (in Arabic), (Beirut: Markaz Dirāsāt al-Wiḥda al-ʿArabiyya, 2010), 6th ed.

5. Dīk, Zahra, Rashīd Būjadra: Hākadhā Takallama… Hākadhā Kataba, (in Arabic), (Algeria: Dār al-Hudā, 2013), 1st ed.

6. Salām, Saʿīd, al-Tannāṣ al-Turāthī: al-Riwāyya al-Jazāiriyya Unmūdhajan, (in Arabic), (Jordan: ʿĀlam al-Kutub al-Ḥadīth, al-Dār al-qawmiyya Lilṭibāʿa wa al-Nashr, 2010), 1st ed.

7. Swīrtī, Muḥammad, Al-Naqd al-Binyawī wa al-Naṣ al-Riwāiī, (in Arabic), (Morocco: Ifrīqyā al-Sharq, Vol 1, 1994), 2nd ed.

8. Al-Sayyid, Maḥmūd, "Lughatunā al-Um: al-ʿArabiyya al-Faṣīḥa", (in Arabic), Majallat Majmaʿ al-Lugha al-ʿArabiyya, 2009, vol. 84, issue 1, Syria, Damascus, pp.13 - 20.

9. Ṭarābīshī, Jūrj, al-Riwāī wa Baṭaluhu: Muqāraba al-Lāshuʿūr Fī al-Riwāyya al-ʿArabiyya, (in Arabic), (Beirut: Dār al-Ādāb, 1995), 1st ed.

10. Al-ʿId Yumnā, al-Riwāyya al-ʿArabiyya: al-Mutakhayyal wa